

الفصل الخامس

الرسالة والشدائد

بعد الخروج من المحنة التي نجمت عن التجربة الأولى لنزول الوحي، وفيما بدأ محمد ﷺ يتلقى المزيد من الوحي، فقد أخذ يطلع المقربين له على الرسالة، ولم يكن قد تلقى بعد تعليمات بشأن كيفية طرح الرسالة على شعبه، لكنه توقع أن يواجه معارضة شرسة، كما تنبأ بذلك ورقة بن نوفل.

أوائل الذين اعتنقوا الإسلام

بعد خديجة - رضي الله عنها -، زوجته وأول من اعتنق الإسلام، توسعت دائرة الذين قبلوا الرسالة بحيث تضمنت عائلته ثم أصدقاءه، وهكذا فقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو ابن عمه الذي كان يعيش في كنفه، وزيد رضي الله عنه، ابنه بالتبني، وأم أيمن، المربية التي تولت رعايته بعد عودته إلى مكة وهو في سن الرابعة، وصديق عمره الحميم أبو بكر رضي الله عنه من بين الأوائل الذين أدركوا حقيقة الرسالة ونطقوا بالشهادة، معربين بذلك عن اعتناقهم للإسلام: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». ازداد عدد الذين اعتنقوا الإسلام ببطء نتيجة دعوة النبي ﷺ الحذرة، وانخراط أبي بكر رضي الله عنه الذي ينطوي على التصميم الشديد، كان أبو بكر رضي الله عنه مستعداً دائماً للحديث عن الدين الجديد والعمل من أجله: فقد كان يشتري الرقيق من

أصحابهم ويحررهم انطلاقاً من مبادئ الإسلام، مؤكداً على مساواة البشر، في تلك السنوات كان وجود محمد ﷺ في مكة وأعماله وسلوكه النموذجي، كل ذلك كان يجذب عدداً كبيراً من النساء والرجال الذين أخذوا يعتنقون الدين الجديد الواحد تلو الآخر، غير أن عدد الذين اعتنقوا الدين الجديد ظل مع ذلك صغيراً خلال الأشهر القليلة الأولى، جاء في الأثر أنه خلال السنوات الثلاث الأولى، بلغ عدد المسلمين من قريش بين ثلاثين وأربعين فقط، كانوا يجتمعون مع النبي ﷺ في بيت أحد الذين اعتنقوا الإسلام، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ويتعلمون أسس دينهم فيما ظل الوحي ينزل عليه، ثم أخذ الجو المحيط يزداد عداءً عندما علم سكان مكة بأسس هذه الرسالة الجديدة وأثرها على الفقراء والشبان. وقد قرر النبي ﷺ، إدراكاً منه لذلك الثوران والأخطار المقبلة، التركيز بشكل حذر على تعليم جماعة صغيرة كان يعرف أنهم سيواجهون المعارضة والرفض، وعلى الأرجح، الإقصاء، ولقد كانت هذه الجماعة التي ظلت ثابتة في وجه الصعوبات والاضطهاد بفضل تربيتهم الروحية وصدق انتمائهم للدين الجديد، فمنذ البداية، كان النبي ﷺ يعطي الأولوية إلى النوعية بدلاً من الكمية، وكان يفضل الاهتمام بطبيعة القلوب والعقول التي كان يخاطبها وليس بالأعداد، فقد قام خلال السنوات الثلاث الأولى، بهدوء، بتكوين المجتمع الأول من المؤمنين، الذي تميز بأنه ضم، دون تمييز، نساء ورجالاً من كافة العشائر والفئات الاجتماعية (مع أن الغالبية كانوا من الشبان والفقراء).

الجهرب بالدعوة

بعد تلك السنوات، أمره الوحي بالدعوة العلنية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽¹⁾. ففهم النبي ﷺ أن عليه الآن تبليغ الرسالة إلى أفراد العشيرة

التي كانت تربطه بهم أو أصر القرابة، فبدأ يدعوهم إلى الإسلام. وفي أحد الأيام، صعد إلى جبل الصفا ودعا رؤساء القبائل فرداً فرداً. وقد ظن هؤلاء أن لديه خبراً مهماً يريد الإعلان عنه، فجمعوا على سفح التل للإصغاء إليه، كانوا لا يستطيعون النظر إلى الوادي، من المكان الذي وقفوا فيه، بينما كان محمد ﷺ مواجهاً له، فناداهم قائلاً: «أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟»، فأجابوا بصوت واحد تقريباً: «نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً»، فمضى النبي ﷺ يقول: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد! لقد أمرني الله أن أنذر عشيرتي الأقربين، لا أغني عنكم شيئاً في هذه الحياة ولا أملك لكم نفعاً في الآخرة، ما لم تؤمنوا بوحداية الله». ومضى يقول: «إني كمن يرى العدو ويعدو إلى قومه ليحذرهم قبل أن يؤخذوا على حين غرة، وهو يصيح وهو يعدو: «حذار! حذار!»⁽²⁾. وجاء رد عمه أبي لهب فوراً وهو يتميز من الغيظ: «تباً لك! ألهذا جمعتنا؟» ثم انصرف على الفور وأخذ معه الرؤساء الذين تجمعوا: وهكذا فقد كان يمثل الذين رفضوا رسالة محمد ﷺ وعارضوه ببالغ الشدة⁽³⁾، بعد ذلك، عندما أقام النبي ﷺ وليمتين لعرض رسالته، فشلت الأولى لأن أبا لهب تدخل ثانية لمنع ابن أخيه من الكلام، وفي الوليمة الثانية تمكن محمد ﷺ من إبلاغ فحوى رسالته، التي سمعها الحاضرون وقبلها سرّاً بعض أفراد عشيرته الذين دعاهم.

استقبل أقاربه وكبار القبيلة كلامه ببرود واستخفاف لأنهم كانوا يدركون أن طبيعة رسالة محمد ﷺ تهدد التوازن العريق في مجتمعهم. فتلك الرسالة كانت تتطوي على تحدٍّ لآلهتهم ولسلطاتهم، وفي ذلك ما فيه من خطورة كبيرة، وظل محمد ﷺ يخاطب أقاربه إلى أن نزل عليه وحي جديد يأمره باتخاذ موقف مباشر وحاسم: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁴⁾.

وهكذا فقد دخلت الرسالة النبوية في مرحلة جديدة، لقد توجهت الآن إلى الناس كافة واقتضت التمييز بين التوحيد، أي الإيمان بإله واحد، وشرك قريش في تعدد آلهتهم، وكان النبي ﷺ قد جمع حوله صفوة من النساء والرجال الصادقين المخلصين، كان بعضهم من أقاربه، ولكن كان الكثيرون غيرهم من فئات اجتماعية وقبائل مختلفة، وكان يزودهم بتعاليم روحية ودينية طيلة السنوات الثلاث السابقة، وكان من المقدر لهم أن يواجهوا، بثبات وصبر، الرفض والاضطهاد والإقصاء في مجتمع مكّي بدأ يتصعد.

الرسالة

في سنوات الوحي الأولى، أخذت الرسالة القرآنية تتمحور تدريجاً حول أربعة محاور: وحدانية الله، مركز القرآن، الصلاة، والحياة بعد الموت. فقد دعي المسلمون الأوائل إلى تحول روحي عميق وجذري، وقد فهم ذلك جيداً الخصوم ضمن عشائريهم، الذين كانوا يخشون من الثوران الذي لا بد أن يسببه الدين الجديد في معتقدات مجتمعاتهم وتنظيمه.

التوحيد

أكدت الرسالة القرآنية بالدرجة الأولى على التوحيد، فبالإضافة إلى فكرة الله كرب، والتي رأيناها تنبثق في مناسبات الوحي الأولى، فقد ظهر الاسم الإلهي، اسم الله بالطبع، فضلاً عن العبارات التي تقرر وجوده بالسلام والرحمة، وهكذا فقد خاطب جبريل النبي ﷺ بعبارة: «السلام عليكم يا رسول الله» و«سلام الله ورحمته عليك». وقد استخدم المسلمون تلك العبارات منذ البداية في تحية بعضهم بعضاً والدعاء إلى الله باسميه الاثنين: السلام والرحمن، كما أن كل سورة من سور القرآن تبدأ بعبارة بسملة يستدعي المتكلم بها وجود الواحد الأحد وصفاته القدسية:

«بسم الله الرحمن الرحيم» وقد جعل القرآن منذ البداية اسم «الرحمن» معادلاً لاسم «الله»: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (5).

هذه الإشارة الدائمة إلى الواحد الأحد ومختلف أسمائه شيء أساسي. بل إنها هي التي تحدد نوع العلاقة التي أقامها المؤمنون الأوائل مع الله: إدراك وجوده والتأكد من أن كرمه هو نعمة منه ووعد بالسلام، وقد تضمنت ذلك بأوضح وجه سورة «الرحمن» التي تخاطب معشر الإنس والجان وتدعوهم إلى التفكير وإدراك وجوده وإنعامه (6).

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الزُّلْكَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ (7).

مركز القرآن

كل شيء من الطبيعة إلى مقتضيات الأخلاق والإنصاف في السلوك البشري، يذكر بالخالق وتجليه الأساسي بالخير والرحمة. بل إنه أنزل النص ذاته باسم رحمته للبشر. فالوحي هو منحة وعبء على السواء. وهذا، من أول الأمر، يطرح المحور الثاني للتعاليم الأولى للإسلام. إن مركز القرآن - الذي يقيم الصلة، في الآيات المذكورة أعلاه، بين الله والبشرية - هو أحد أسس العقيدة الإسلامية (8). فالقرآن هو كلام الله الذي أوحى به بهذه الصفة إلى البشرية ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وهو في

الوقت نفسه نذير ونور وإعجاز⁽⁹⁾. إنه تذكرة لرسائل التوحيد السالفة، نور الهدى الإلهي للمستقبل، ومعجزة الكلمة الخالدة التي ليس لها مثل المرسل إلى البشر في صميم تاريخهم.

منذ البداية، يتجلى القرآن كمرآة للكون. إن كلمة (Verse) التي استخدمها المترجمون الغربيون الأوائل - من منطلق مفردات الكتاب المقدس - تعني حرفياً «علامة» (آية). فالكتاب الموحى به، النص المكتوب، يتكون من آيات، على غرار الكون، مثل نص منشور أمام أعيننا، يعج بالآيات. فعندما يقرأ عقل القلب، ليس العقل التحليلي فقط، القرآن والعالم، فإنه يجد أن النصين يتوجهان إلى بعضهما وأنها صدى لبعضهما، وأن كلاً منهما يتحدث عن الآخر وعن الواحد الأحد. فالآيات تذكرنا بمعنى أن نولد ونعيش ونفكر ونشعر ونموت.

فالقرآن بما يتصف به من شكل ومحتويات مثيرة، فضلاً عن قوته الروحية، هو معجزة الإسلام. كما أنه يمثل مسؤولية كبيرة ومزدوجة للمسلمين: على صعيد المتطلبات الأخلاقية التي تطبعها فينا التعاليم القرآنية ومن حيث قدرتها على أن تكون شاهدة على ذات التعاليم المطروحة على البشر، على السواء. هذا البعد يظهر منذ أوائل الوحي، فسورة «المزمل»، وهي من أوائل الوحي تنطوي على نذير: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»⁽¹⁰⁾. وتستخدم آية أخرى صورة قوية التعبير عن الصفة الروحية للقرآن: ﴿لَوْ أَرْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾⁽¹¹⁾. فالوحي يفصح عن نفسه بأنه نذير خير وأمر أخلاقي شديد الحزم ينشر الإلهام الروحي بقدر ما ينظم الشكل الواضح للطقوس الدينية.

الصلاة

بينما كان محمد ﷺ يسير في أنحاء مكة، جاءه الملك جبريل، وعلمه كيفية الوضوء وأداء فرض الصلاة⁽¹²⁾. هذه التعاليم جاءت في وقت مبكر جداً، حيث إنها فرضت على الفور عمل التطهر بالماء مع الأمر بأداء الصلاة التي تقوم على تلاوة القرآن وعلى سلسلة من الركعات، وقد نفذ النبي ﷺ تعليمات جبريل الواحدة تلو الأخرى، وعاد إلى البيت ليعلم زوجته خديجة - رضي الله عنها - كيفية أداء الصلاة، في تلك السنوات الأولى، كانت الصلاة المفروضة تمارس مرتين في اليوم فقط، صباحاً ومساءً.

وتشير سورة المزمل المشار إليها آنفاً إلى صلاة الليل التي أصبحت واجبة على كافة المسلمين في بداية الحقبة المكية وبقيت على تلك الحال إلى أن تم في خاتمة المطاف فرض الصلوات الخمس في كل يوم، كان التدريب الروحي والشعائر ينطويان على متطلبات ثقيلة:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ۝١ قُلْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ يَصْفَهُ ۝٣ أَوْ أَنْصُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٤ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبُّكَ الْقَزْءُ ۝٥ تَرْتِيلًا ۝٦ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٧ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٨ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٩ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَبَنِّسْ إِلَيْهِ بَنَسِيلًا ۝١٠﴾ (13).

في قلب مكة، وفي بيئة متزايدة العداء، كان النساء والرجال الذين اعتنقوا الإسلام يتعلمون بلا توقف، وبهدوء: فقد كانوا يقومون الليل ويصلون مدة طويلة، ويتلون عن ظهر قلب آيات القرآن التي جعلها الواحد الأحد الصلة الفضلى بين وده اللامتناهي وقلب كل كائن. هذا التأهيل الروحاني الراقى هو الذي كونه الخصائص المهمة للمؤمنين الأوائل: كان هؤلاء الأتقياء والراشدون والحازمون يصلون إلى إله

الرحمة والسلام، ويتلون القرآن الموحى به، الذي هو ذكر ونور ويسيرون على خطى خاتم الأنبياء وتعاليمه، إن جوهر الرسالة الإسلامية يتجسد كلياً في علاقة الثقة والمحبة الحميمة بالعلي الأعلى ويقيم صلة مباشرة بين الفرد وخالقه، الذي شاء إظهار السلوك الأسمى من خلال رسول، من البشر، أرسله ليكون قدوة للبشر، وقد جمعت ثلاث آيات لاحقاً الجوهر الحقيقي لهذه التعاليم:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (14).

في قلب هذه العلاقة الحميمة، يفتح النبي الطريق:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (31) (15).

وهو مثال الإنسان الذي يتوق إلى الإله الذي يتجاوز محدودية الحياة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١) (16).

لقد عاش المؤمنون الأوائل على هذه التعاليم: ففي صلواتهم كانوا يتوجهون إلى القدس، معربين بذلك عن الرابطة الواضحة بين هذه الرسالة والتوحيد في اليهودية والنصرانية، اللتين لهما ذات التطلعات إلى الأبدية والحياة في الآخرة.

الآخرة واليوم الآخر

تكرر آيات القرآن موضوع الحياة بعد الموت، ففي مواجهة عدم تصديق الناس، يعتمد القرآن، كما رأينا في فصول سابقة، على أمثلة مستقاة من الطبيعة، وعلى وجه التحديد من الصحراء، التي تبدو وكأنها أرض ميتة، تهتز وتربو بعد نزول المطر، وفي وقت مبكر جداً توجه اهتمام النبي بالدرجة الأولى إلى هذه الحياة الأخرى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (17).

وفي واقع الأمر، لم يكن مقصود الرسالة بكل وضوح تهدئة الشكوك والمخاوف بشأن الموت الذي لا مفر منه بل كان غرس الاعتقاد الراسخ في عقول المؤمنين وقلوبهم بأن لهذه الحياة معنى، وأتينا إلى الله راجعون. إن هذه التذكرة المتواصلة بالآخرة تؤكد بالفعل على اليوم الآخر، يوم الحساب، الذي يقيم الله فيه الميزان بين الخير والشر والمسؤول عنهما كل كائن خلال حياته الدنيوية، وبالتالي، فإن إدراك اليوم الآخر يشير إلى العلاقة بين الإيمان والأخلاق، بين التأمل والعمل: إن «الطريق المستقيم» الذي يرضى عنه العلي الأعلى هو طريق ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (18).

وهكذا فإن يكون الإنسان مع الله ولله وأن يكرس نفسه لله ينطوي على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؛ إنه السعي لتحقيق مقتضى الأخلاق (19). أن يكون الإنسان مع الله يستتبع بالضرورة تغيير السلوك والانضمام إلى ﴿أُمَّةٍ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (20). إن الإسلام، كغيره من أديان التوحيد، يؤكد على الرجوع إلى الله، على حكمه، على الجنة والنار، وتقرن آيات عديدة معنى الحياة بالآخرة، في التجربة الروحية التي تحدد معنى الحياة وتربطها بمقتضى السلوك الأخلاقي، تعد هذه المرحلة التمهيدية شيئاً أساسياً، رغم أنها ليست التعاليم النهائية عن العلاقة بالله، إن ذروة

العلاقة مع من هو أقرب إلينا من حبل الوريد، والتي تتجاوز الطمع في جنته والخوف من ناره، هي محبته والطموح إلى النظر إلى وجهه الكريم إلى الأبد، كما علم النبي ﷺ صحابته لاحقاً بهذا الدعاء: «اللهم امنن علينا بالنظر إلى وجهك الكريم». إن المقتضى الأخلاقي هو الذي يشكل الطريق اللازم إلى القرب الحميم من الله والمليء بالمحبة.

الشدائد

انتقلت الدعوة الآن إلى العلن، ومع أن الإرشاد الذي كان يناله الداخلون حديثاً في الإسلام في دار الأرقم كان يتصف بالحذر، إلا أنهم لم يكونوا ليترددوا في التحدث مع أقربائهم وإلى من حولهم، فيوماً بعد يوم كان يزداد إدراك رؤساء العشائر للخطر الذي كان يشكله الدين الجديد: لقد كان تمرداً صريحاً ومباشراً على آلهتهم وتقاليدهم، وكان سيعرض سلطة الرؤساء للخطر في خاتمة المطاف، فقرروا في بادئ الأمر إرسال وفد إلى عم النبي ﷺ، أبي طالب، الذي كان حتى ذلك الوقت يحمي ابن أخيه. فطلبوا منه أن يتحدث إلى محمد ﷺ ويطلب منه التوقف عن نشر رسالته، التي كانوا يعتبرونها خطرة وغير مقبولة لأنها كانت تهاجم آلهتهم وتراث أسلافهم مباشرة، لكن أبا طالب لم يفعل شيئاً بعد زيارتهم الأولى، فعادوا وأكدوا له أن المسألة شديدة الإلحاح، عندئذ أرسل أبو طالب يطلب ابن أخيه وحاول إقناعه بإنهاء أعماله حتى لا يضعه في موقف حرج، كان رد محمد ﷺ حازماً: «والله يا عماء، لئن وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»⁽²¹⁾. أمام هذا التصميم، لم يصر أبو طالب، بل أكد للنبي ﷺ استمرار دعمه له، ثم جاء للنبي ﷺ وفد آخر وعرض عليه المال والجاه

والسلطة، فرفض عروضهم الواحد تلو الآخر وأكد لهم تمسكه برسالته: وهي دعوة الناس إلى معرفة الله والإيمان به، مهما كان الثمن.

ما بي وما تقولون، ما جئت بما جئكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولكن الله بعثني عليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم. فإن تقبلوا ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (22).

بهذه الكلمات وضع محمد ﷺ حداً لإمكان القبول بجل وسط: فهو لن يتوقف عن إبلاغ رسالته، ويتوكل على الله ويصبر على عواقب هذا القرار في هذه الدنيا. وكانت الأعمال العدائية قد بدأت في هذه المرحلة: فقد دأب رؤساء العشائر على توجيه الإهانات للنبي ﷺ وكانوا ينعته بالجنون وأن به مساً أو أنه ساحر. وأرغم عمه أبو لهب ابنيه على طلاق ابنتي النبي ﷺ، اللتين كانا قد تزوجاهما، في حين أن زوجته كانت تعمد إلى إلقاء القمامة في الطريق عند مرور محمد ﷺ.

وانتشرت الإشاعات بأن محمد ﷺ كان ساحراً في واقع الأمر، وأنه فرق الأسر وفصل الآباء والأمهات عن أولادهم والأزواج عن زوجاتهم وأنه مثير للمتعاب، وعند اقتراب موعد السوق السنوية عمل رؤساء العشائر، انطلاقاً من خوفهم من قيام محمد ﷺ بنشر رسالته بين الزائرين، إلى توزيع الرجال على مختلف مداخل مكة لتحذير القادمين من الزوار من الأذى الذي سببه محمد ﷺ وأصحابه، وقد نجحت استراتيجية عزله عنهم نجاحاً كبيراً، مع أن البعض لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتأثروا. ومنهم قاطع الطريق أبو ذر الغفاري، فعند سماعه بهذه الرسالة الجديدة التي

تدعو للإيمان بآله واحد، ذهب إلى النبي ﷺ رغم تحذيرات القرشيين. فوجد محمداً ﷺ مستلقياً في الظل قرب الكعبة، فنَادَى على محمد بالاسم وسأله عن رسالته فأصغى إليه ثم نطق على الفور بالشهادة، الأمر الذي أدهش النبي ﷺ الذي قال وهو ينظر إليه: «إن الله يهدي من يشاء!» وقد أصبح أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لاحقاً من أشهر صحابة النبي ﷺ؛ وكان معروفاً بتفانيه وشدة واستنكاره للترف والكسل.

كان النبي ﷺ يتعرض للأذى والسخرية، وكان الناس يطلبون منه أن يأتي بالمعجزات والأدلة، فكان لا يفتأ يجيبهم بما أنزل عليه من القرآن: «إن أنا إلا رسول!» وازداد الضغط وبدأت مظاهر المعارضة العنيفة تظهر بشكل متزايد، وكان رؤساء العشائر يشاركون في التعدي بشكل خاص على فقراء المسلمين الذين لم يكن لهم من يحميهم من أي من العشائر. فكان بلال الرقيق يُقيد من قبل مالكة في الصحراء، في الشمس المحرقة. وكان مالكة يضع حجراً كبيراً على بطنه لإجباره على التخلي عن دينه، لكن بلالاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظل يردد «أحد، أحد». ثم اشترى أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلالاً (كما كان يفعل بالكثيرين من الرقيق الآخرين) وأطلقه. وقد أصبح بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لاحقاً مؤذن المدينة ويحظى باحترام الجميع لصدق إيمانه وإخلاصه وجمال صوته (23).

ثم أصبح رجل من قبيلة مخزوم، واسمه عمرو، يعبر عن معارضته للإسلام بأقصى طريقة ممكنة، وكان أقرباؤه يسمونه أبا الحكم، لكن المسلمين الذين رأوا رفضه رؤية الحق وخشونته، سموه أبا جهل، فذهب مرة للقاء النبي ﷺ ووجه إليه الإهانات التي تتم عن درجة من الحقد جعلت الذين سمعوه، رغم كونهم غير مسلمين، يقولون بأنه تجاوز مفاهيم الشرف جراء إهانة محمد ﷺ بهذه الطريقة، عندما سمع بذلك حمزة،

عم النبي، انبرى إلى أبي جهل وهدده بالانتقام منه إذا كرر ما فعله بهذه الطريقة، وأعلن في الوقت نفسه، بأنه اعتنق هو نفسه الإسلام، وأنه سيتولى الآن هو نفسه حماية ابن أخيه⁽²⁴⁾.

فتوقف أبو جهل عن إهانة محمد ﷺ: وبدلاً من ذلك، فقد أخذ يسيئ إلى أفقر الصحابة، وأشدهم تأثراً، وكان عمار ﷺ، وهو شاب من أصل يمني، قد اعتنق الإسلام منذ أوائل الدعوة وتأهل على يد النبي ﷺ في دار الأرقم، ثم أسلم أبوه ياسر، ثم أمه، سمية، بعده بفترة وجيزة، وانخرطاً بهمة كبيرة في تعلم الدين الجديد، فاخترهم أبو جهل ليكونوا موضعاً لكراهيته وانتقامه: فكان يضربهم ويقيدهم في الشمس المحرقة ويعذبهم، ولم يكن النبي ﷺ يستطيع فعل أي شيء بسبب الطابع المعقد للتحالفات بين العشائر، فكان يرى هذه المعاملة المهينة دون أن يتمكن من التدخل، فمر يوماً بياسر وزوجته، اللذين كانا يعانيان من سوء المعاملة فقال لهما: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة». ولكن رغم عمليات التعذيب تلك، والتي استمرت لأسابيع، كانت سمية وزوجها ياسر يرفضان التخلي عن دينهما، بل إن سمية كانت تصرخ في وجه أبي جهل وتندد به وبسلوكه الذي ينم عن الجبن، وقد أثار ذلك غضبه فظل يطعنهما حتى ماتت، ثم التفت، وهو في ثورة غضبه ذاتها، إلى زوجها وظل يضربه حتى مات أيضاً، فكانت سمية وياسر أول شهيدتين في الإسلام: حيث جرى اضطهادهما وتعذيبهما ثم قتلهما لرفضهما الكفر بالله وبوحدانيته وصدق وحيه⁽²⁵⁾.

أخذت الأوضاع تزداد سوءاً بالنسبة للمسلمين، لاسيما بالنسبة لأشدهم تأثراً وضعفاً من حيث المركز الاجتماعي والانتساب العشائري. كانت حمايته منوطة بعميه أبي طالب وحمزة، لكن هذه الحماية لم تكن

تشمل بأي حال من الأحوال الجماعة الروحية الأولى للمسلمين، وأصبحت القاعدة هي الإهانات والرفض وسوء المعاملة، وأخذ محمد ﷺ يبحث عن حل لتخفيف الفتن والآلام التي كان يعاني منها المسلمون الأوائل، ففكر بالاتصال بالوليد، رئيس عشيرة مخزوم، التي كان أبو جهل ينتمي إليها؛ وكان الوليد يتمتع بسلطة كبيرة على المجتمع المكي برمته، فإذا استطاع النبي ﷺ إقناعه بصدق رسالته، أو جعله على الأقل يتشفع للمسلمين ويوقف عمليات اضطهادهم، فإن هذا سيكون إنجازاً لنفسه ولأصحابه. ولكن فيما كان يطرح أفكاره ويحاول كسب دعم الوليد، قاطعه رجل أعمى، فقير الحال وكبير السن، كان قد اعتنق الإسلام حديثاً وأخذ يطلب إليه تلاوة بعض سور القرآن عليه، في أول الأمر أشاح محمد ﷺ بوجهه بهدوء، لكنه سرعان ما شعر بالضيق جراء إلحاح الرجل المسن الذي كان يحول دونه وطرح قضيته على الوليد، الذي كان شديد الازدراء ورفض في خاتمة المطاف مجرد سماع أقوال النبي ﷺ. وقد نزلت سورة جراء هذه الواقعة طالبةً من المسلمين استقاء العبرة الأزلية منها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢)
وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنُفَعَّهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى
(٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى
(٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ (١١) فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرْهُ ۚ (١٢) ﴿(26)﴾

لقد تعرض النبي ﷺ، في اندفاعه لحماية جماعته، إلى عتاب ربه، الذي علمه ألا يشيح عن أي كائن، بصرف النظر عن الظروف الصعبة التي يمكن أن يكون الرسول يواجهها، حتى وإن كان الشخص فقيراً أو مسناً

أو أعمى، ففي سعي النبي ﷺ للحصول على حماية شخص بارز مفيد من الناحية الاجتماعية والسياسية، أهمل رجلاً فقيراً، لا أهمية له لقضيته، من حيث الظاهر، ينشد العزاء الروحي، وقد سجل القرآن هذه الغلطة، هذا الانزلاق، معلماً للمسلمين من خلال هذه القصة عدم إهمال أي كائن بشري أبداً، وعدم الابتعاد عن الفقراء والمعوزين، بل أهاب بهم خدمتهم ومحبتهم، ولم يكن النبي ﷺ لينسى هذا الدرس، وكان دائماً يدعو الله قائلاً: «اللهم ارزقنا التقى والعفاف والغنى وحب المساكين» (27).

وهكذا فقد كان النبي ﷺ قدوة للمسلمين لا من حيث سلوكه المتميز فحسب بل أيضاً من حيث نقاط الضعف في إنسانيته، التي ذكرها القرآن حتى لا تنسى ضمائر المسلمين أبداً هذه الرسالة عبر الأزمنة، لا يجوز لأحد أبداً أن يدع المصالح الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية تلفته عن الناس الآخرين، عن الاهتمام والاحترام الواجبين لهم، فلا يجوز لشيء أن يجعل الإنسان يتساهل في هذا المبدأ الإيماني من أجل إستراتيجية سياسية ترمي إلى إنقاذ أو حماية جماعة من خطر من الأخطار، إن قلباً صادقاً يقدمه فرد صادق فقير لا حول له ولا قوة أفضل ألف مرة عند الله من قلب إنسان غني يهتم بمصالحه ويكون محور سعي للملاطفة والمجاملة.

وقد كان النبي ﷺ يسعى دائماً لأن يكون قدوة شاهداً على هذه الرسالة، لكن المسلمين، عبر تاريخهم، كثيراً ما نسوا وأهملوا هذه الدعوة في معاملة المعوزين باحترام والحفاظ على كرامتهم، وحتى في حياة النبي ﷺ، تحدث أحد الصحابة، أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، الذي أتينا على ذكره آنفاً، بطريقة شديدة وحازمة منتقداً نقائص بعض المسلمين الذين ينقادون بشكل متزايد إلى السلطة والراحة والثروة، فقد رأى في

ذلك بداية لعكس النظام الروحي، ودليلاً على ابتعاد شديد، والعلامات الأولى لوقوع كوارث جرى التنبؤ بها. ولقد علمنا التاريخ، منذ ذلك الوقت، بما كان يحفل به من أمثلة على التعطش للسلطة والثروة والتساهل بالمبادئ، صدق هذا الحدس، ولا يزال يتردد صدى تحذيرات النبي ﷺ لنا في أذهاننا، حيث خاطب أمته الروحية القادمة عبر القرون: «لكل أمة فتنه، وفتنة أمتي المال» (28).

